﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾

[المائدة: 83]

لَمّـــا وصـفـهـم بالعلم والعبادة والـتّـواضـع بيّن هنا رقّة قلوبهم واتّباعهم الحق

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ أقرب النّاس للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى؛ للين جانبهم ورقّة قلوبهم وقلة حرصهم على الدّنيا، ألحقه بقوله عزّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ لبيان "رقّة قلوبهم وشدّة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحقّ وعدم تأبيهم عنه"[1]. وقد تَضَمَّنَت الآية السّابقة وَصفَهُم بِأَنَّ فِيهِمُ العِلمَ وَالعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُعَ، وَصَفَهُم هنا بِالانقِيَادِ لِلحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالإِنصَافِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ السّمعُ "حِسُّ الأذن... والسَّمعُ أيضًا الأُذن، والجمعُ أَسماعٌ. والمُراد بالسّمع "هاهنا القَبُولُ والعمَلُ بما يَسمَعُ؛ لأَنّه إذا لم يَقبَل ولم يَعمل فهو بِمَنزِلَة من لم يَسمَع"[3].

2) ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ من الفعل (رَسَلَ)، و" أصلُ الرّسل الانبعاثُ على التُّؤدة، ويُقال ناقةٌ رَسلَةٌ، سهلةُ السّير، وإبلٌ مَرَاسِيلُ، مُنبَعثة انبِعَاثًا سَهلًا، ومنه الرَّسولُ المُنبعِثُ"[4]، فالرّسولُ هوَ المبعوثُ من الله تعالى إلى خلقِه.

3) ﴿تَرَىٰٓ﴾: الفعل منه (رَأَيَ)، حصل فيه إعلالٌ، فصار (رَأَى)، والفعلُ هُنا للمُخاطَب أنتَ (تَرَى)، "والرّأيُ مُنتهى البصر،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/168.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/162.
(4) الراغب، المفردات: (رسل).

ورأيُ العين، مُنتهى بصرها، والرُّؤية رُؤيةُ العين"[1]، ولهذا الفعل أنواعٌ كثيرةٌ؛ منها الرُّؤية العينيّةُ البصريّةُ، وهي المُرادة في الآية؛ ومنها رُؤية القلب؛ ومنها رُؤيا المنام، وغير ذلك.

4) ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾: جمعُ تكسير، مُفرده (عينٌ)، ولها معانٍ عديدة في كلام العرب؛ كالذّهب، ومَنبَع الماء، والجاسوس، وغيرها، ولعلّ أوَّلها عينُ الإنسان، وهي الجارحة[2]، وهي المُرادة المقصودة في الآية؛ بدلالة قوله ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾.

5) ﴿تَفِيضُ﴾: من "فاضَ الإناءُ ونحوُهُ امتلأ حتّى طفح، زاد عن حدّ الامتلاء فسَالَ... فاضَت عينُهُ سالَ دمعُها"[3]، ولفظةُ (الدَّمع) مُتعلّقةٌ بما سبقها من العين، مُكملّةٌ في سياقها، ومعنى الدّمع دمعُ العين، وما يسيلُ منها، والدّمعةُ واحدةُ الدّمع، القطرةُ منه[4].

6) ﴿ٱلدَّمۡعِ﴾: (دَمَعَ) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَاءٍ أَو عَبرَةٍ، ومنه الدَّمعُ: مَاءُ العَينِ، وهو اسم للسّائل من العين[5].

7) ﴿عَرَفُواْ﴾: لهُ أصلان في كلام العرب، الثّاني ما لهُ تعلُّقٌ باللّفظ الوارد في الآية، وهو "المَعرِفَةُ والعِرفَانُ، تقولُ عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرفَانًا وَمَعرِفَةً، وهذا أَمرٌ مَعرُوفٌ، وهذا يدُلُّ على ما قُلنَاهُ من سُكُونِه إليه؛ لأَنّ من أنكَرَ شيئًا تَوَحَّشَ منهُ، ونَبَا عنهُ"[6]، والمُرادُ في هذا السّياق ما عَرَفوا وأيقنوا من الحقّ، وأنِسُوا به، وهذه المعرفةُ مُتعلّقةٌ بـ(الحَقِّ).

8) ﴿ٱلۡحَقِّ﴾: يدُلُّ على إحكام الشَّيء وصِحَّته، وهو نقيضُ الباطل، ثُمَّ يرجعُ كُلُّ فرع إليه بجودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال: حقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ.[7]، والحقُّ هنا الدّينُ، وما أنزلَ اللّه لعباده عن طريق أنبيائه ورُسُلِه وبينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلاّ "أَنّ الحقَّ أَعمُّ، لأَنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هُو أولى به، والصّدقُ الإخبارُ عن الشَّيء، على ما هُو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغيرَ إخبار[8]؛ لذا لا يحسُنُ في هذا الموضع إلّا كلمةُ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/235.
(2) الراغب، المفردات: (عين).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/759.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (دمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان: (دمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقّ).
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

الحقّ؛ فهي المُناسِبةُ لفظًا ومعنًى؛ لما للحقّ من سَعةٍ وعُمُوم، قُبالة التّقييد المُنبِئِ عن الصِّدق.

9) ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾: من الفعل المجرّد (كَتَبَ)، والكتابةُ معروفةٌ، والقصدُ منها التّدوينُ، وقد تأتي بمعنى الفرض، إلّا أنّ الأصلَ فيه أن تجمعَ شيئًا وتضُمّهُ إلى شيءٍ آخر[1]، والمعنى هنا: اجمَعنا مع الشّاهدين، فقد جاءتِ اللّفظةُ على أصلها اللُّغويّ.

10) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: المعنى اللّغويُّ لـ(شهد) حَضَرَ، أمّا الشّهادةُ فهي "بيانُ الحقّ، سواءٌ كان عليه أو على غيره، وخبرٌ قاطعٌ يختصُّ بمعنًى، يتضمّنُ ضررَ غير المخبر؛ فيخرجُ الإقرارُ، وقيل إقرارٌ مع العلم وثباتِ اليقين، والإقرارُ قد يَنفكُّ عن ذلك"[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

هذه الآيةُ تُتَمِّمُ صفاتِ الذين قالوا: إنّا نصارى، حيثُ وصَفَهم الله سبحانه أنّهم إذا سمعوا القرآنَ المُنزل على الرّسول ﷺ، بما فيه من بلاغة وروعة وإعجاز، تفيضُ أعينُهم من الدّمع تبصُّرًا بالحقّ، وتأثُّرًا بأنواره، وانبهارًا بأسراره، فيرفعُون أكُفّ الضّراعة لله، مُقرّين بإيمانهم الّذي غمَرَ قلوبَهم، وفاضَت به دموعُهم، وامتلأَت به جوانحُهُم خشيةً وتقوًى، سائلين المولى أن يجعلَهم مع الشّاهدين من أمّة الرّسول الأكرم ﷺ، وذلك هو سبيلُ الفلاح، وطريقُ النّجاة، الّذي به ينالُون الحُسنَيَين، ويكونُ لهم به الأجرُ مرّتين، ثمّ في الآية تلميحٌ إلى المسلمين أنفُسِهم بضرورة الثّبات على دينهم، ومُلازمة كتابهم؛ لأنّه إذا كان هذا هو حال غيرِ المسلمين في تأثُّرهم ومعرفتهم الحقّ، فحَرِيٌّ بأهل الإسلام أن يكُونُوا أكثرَ تأثُّرًا، وأشدّ تمسُّكًا بكتابهم الحنيف، ومنهج نبيّهم الشّريف.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، "أي ذلك بسبب أنّهم لا يستكبرون، وأنّ أعينَهم تفيض

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: (كتب).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 527.

عـطـف لـبـيـان أسـبـاب أخـرى لقرب مودّتهم، وبـيـانًـا لـرقّـة قلوبهم

من الدّمع عند سماع القرآن، وهو بيانٌ لرقّة قلوبهم وشدّة خشيتهم ومسارعتِهم إلى قبول الحقّ وعدم إبائهم إيّاه"[1]، فهو من تمام سبب مودّتهم للمؤمنين.

تأثّرَ القسّيسيون والرُّهبان بالقرآن ففاضت أعيُنُهم رقّةً وخشوعًا:

هذه الآية معطوفةٌ على الآية الّتي سبقتها، بدلالة حرف العطف (الواو)، فقد وَصَفَ أولئك الباكين المُتبتّلين من النّصارى بأنَّ منهُم قسّيسين ورُهبانًا، وأنّهم لا يستكبرُون، وبأنّهُم إذا سمعُوا ما أُنزل إلى الرّسول ﷺ ، تأثّرُوا به وتفاعلُوا معه، والسّياق يبرزُ لنا هذه المشاعرَ المُتدفّقةَ بجمالٍ وروعةٍ وإيجازٍ.

دلالةُ ربط الكلام بأداة الشّرط (إذا):

قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، بُدئ السّياقُ بظرفٍ مُتضمّنٍ معنى الشّرط؛ فإنّهُم في أوان سماعهم ما ينزل على الرّسول ﷺ من الكتاب المُحكَم، والآياتِ الباهرة المُعجزة، ترى أعيُنَهم تفيضُ من الدّمع، و(الواوُ) في سَمِعُوا ضَميرٌ مُتّصلٌ، يعُودُ على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ في الآية السّابقة، وهذا وجهُ ربط حجاجيٍّ بين الآيتين.

القسّيسون الرُّهبانُ هم البكّاؤون الذين تسيلُ دموعهم كلّما سمعوا الذِّكر المُنزَل:

السّرّ في إيجاب تخصيص عموم الضّمير:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ عبّر بالضّمير الدّالّ على العموم، ولكنّه في الآية يدلّ على الخصوص فهو يعود على "مَن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا آمنا، وليس كلّ النصارى يفعل ذلك"[2]، فقد " أَخبَرَ عَنهُم بِمَا يَقَعُ مِن بَعضِهِم"[3]، إكرامًا للجميع بفعل البعض، وفيه تربية ودعوة للذين لم يفعلوا ذلك وإلهاب لهم لسماع القرآن.

وجب تخصيصه إذ ليس كلّ النّصارى يفعل ذلك

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/72.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/226 - 227.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/345.

وهنا نكتة بالغة اللّطف وهي أنّ القرآن عندما يذمّ فإنّه يخصّص ويستثني إنصافًا منه، وعندما يمدح ويثني فإنّه يعمّم إكرامًا وإفضالًا منه.

السّرّ في التّعبير عن القرآن بما أنزل:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ آثر تعالى أن يعبّر عن القرآن بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ﴾، دون الاسم فلم يقل: (إذا سمعوا القرآن)؛ إظهارًا إلى ما في حيّز الصّلة، وهو صفة التّنزيل، إشارة إلى أنّهم آمنوا بكونه نازلًا من الله تعالى، ولو ذكره بالاسم الصريح (القرآن) لفات هذا المعنى.

إظهارًا لصفة التنزيل، تعبيرًا عن إيمانهم بكونه نازلًا من الله تعالى

إيثار التّعبير بلفظ الرّسول دون النّبي:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ آثر لفظ الرّسالة على النّبوّة إيماءً إلى كونهم آمنوا بهذه الصّفة، وهي كونه مرسلًا من الله تعالى، وأنّهم مشمولون بخطاب التّكليف الوارد بالرسالة، ولو عبّر بلفظ النّبوّة لفات هذا المعنى.

إيماءً إلى إيمانهم بكونه مرسلًا من الله تعالى، وأنّهم مخاطبون بالتّكليف

مَرجِعُ ضمير الخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾:

قوله ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ خطابٌ للرّسول ﷺ؛ أي: أنّك ترى إن كانت الرُّؤيةُ منه، أو هو خطابٌ لكلّ أحدٍ يَصِحُّ أن يرى[1]، والألفُ واللّامُ في (الرَّسُولِ) عهديّةٌ؛ فإنّ لفظ (الرَّسُولِ) يصلُحُ لكلّ رسُول، لكنَّ المعهُود والمعرُوف أنّه رسُولُنا الكريم محمّد ﷺ، والرُّؤيةُ هُنا رُؤيةُ العين، ففي لفظ (تَرَى) فعلٌ فاعلُهُ مُستترٌ وجوبًا تقديره (أَنتَ)، وقوله (أَعيُنَهُم) مفعولٌ به، وهو دليلٌ على أنّ الرُّؤية هنا بَصَريّة، من خلال مشاهدته ﴿أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، والكلامُ مُكرّسٌ أساسًا للّذين قالوا: إنّا نصارى، والمرادُ هنا المسالمون منهم الذين يرغبون في العيش بسلام إلى جوار المسلمين.

الخطابُ لرسول الله ﷺ، وكلّ من يتأتّى خطابُهُ؛ إيذانًا بأنّ أمرَهم مشهورٌ يعرفُهُ كلُّ من يُبصر، وجاء المضارعُ لتصوير حالتهم:

(1) بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/10.

العدول عن الإخبار إلى الرّؤية:

تأكيدًا لمضمون الكلام؛ لأن الرّؤية أثبتُ أسباب العلم

في قوله جلّ شأنه: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أخبر عن تأثرهم بسماع القرآن بالرّؤية، ولم يقل: (وإذا سمعوا القرآن أعينهم تفيض من الدّمع) تأكيدًا بمضمون الخبر؛ إذ لم يعبّر عنه بالإخبار المباشر "بل عبّر عنه بالرّؤية المبصرة التي هي أقوى أسباب العلم الحسّيّ"[1]، وفيه دلالة على أنّ فيض دموعهم يقع أمام كلّ أحد، وأنّهم مشهورون فيه، مبالغة في شدّة خشوعهم ورقّة قلوبهم.

سِرُّ التّعبير بجمع القِلّة ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾:

تخصيص جمع القلّة (أعيُن) بالأعيُن الباصرة، وتخصيصُ جمع الكثرة (عيون) بعيون الماء

﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾: أعيُن: على وزن (أَفْعُل) جمعُ تكسير، مُفرده (عَينٌ)، يُفيد القلّة، وهذا ديدَنُ القرآن الكريم في تخصيص جمع القلّة (أعيُن) بالأعيُن البَاصرة، وتخصيص جمع الكثرة (عيون) بعيون الماء، وليس معناه أنّ النّصارى المتَحَدَّث عنهم في هذا السياق عددُهم قليلٌ محدودٌ؛ لأنّ الاستقراءَ يدلُّ على أنّ القرآن خصّص لفظ (الأعيُن) بالأعين الباصرة حتّى لو كان السّياق يدلُّ على كثرة المُتَحَدَّث عنهم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعٗا ١٠١﴾ [الكهف: 101]، ومعلومٌ من آياتٍ أخرى من الذّكر الحكيم أنّ الذين ذرأهم الله تعالى لجهنّم، وكانت أعيُنُهم في غطاء هم أكثرُ بكثير من الّذين آمنوا.

المجاز في إسناد الفيض للعيون:

في قوله ﷻ: ﴿أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أسند الفيض للعيون، والعين لا تفيض، بل تمتلئ بالدّموع، والدّموع هي التي تفيض، فوضع "الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2328.

المسبَّب مقام السّبب"[1]؛ "لِأَنَّ الفَيضَ مُسَبَّبٌ عَنِ الامتِلَاءِ، فَالأَصلُ: تَرَى أَعيُنَهُم تَمتَلِئُ مِنَ الدَّمعِ حَتَّى تَفِيضَ"[2]، وإنّما عبّر بذلك مبالغة في شدّة بكائهم؛ حيث إنّها تفيض مباشرة، كأنّها ممتلئة دائمًا، أو أنّه تعبير عن سرعة بكائهم بحيث يقع الفيض مباشرة.

أسند الفيض للعيون، وهو للدّموع، تعبيرًا عن امتلاء العين بالدّموع لكثرتها

دلالةُ المجاز المُرسَل في قوله ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ﴾:

التّعبيرُ بفيض الأعين مجازٌ، علاقتُهُ الامتلاء[3]. جاء في حاشية الشّهاب الخفاجيّ: "الفيضُ انصبابٌ عن امتلاء، فوُضع مَوضعَ الامتلاءِ للمُبالغة، أو جُعلت أعيُنُهم من فَرط البكاء كأنّهَا تَفيضُ بأنفُسِهَا"[4].

الفيضُ انصبابٌ عن امتلاء، جُعلت أعيُنُهم من فَرط البكاء كأنّهَا أنهارٌ تَفِيضُ:

جُملةُ ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ وموقِعُها من النّظم:

وصفَ اللّه تَعالى الأعيُنَ بقوله ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، أي: ترى أعيُنهم في حالة كونها تفيضُ؛ والجُمَلُ (بعد النّكرات صفاتٌ، وبعد المعارف أحوالٌ)[5]، والمعنى أنّك ترى أعيُنهم فائضةً من الدّمع، و(مِن) هنا لابتداء الغاية؛ أي: أنّ فَيضَها مُتأتٍّ من كثرة الدّمع[6]، وعلى ذلك فقد يكون هُناك محذوفٌ، على تقدير (كَثرَةِ الدَّمعِ)، وهو ما يَنسَجِمُ مع المعنى المُراد في الآية، من فيضان أعيُنِهم بالدّمع، ولا يحصُلُ ذلك إلاّ لشدّة خَشيتهم، ورهافة قلُوبهم، ومُسارعتهم إلى الإيمان والتّصديق، وعدم تكبُّرهم.

فيضان أعيُن النّصارى المذكورين بالدّمع دليلٌ على شدّة خشيتهم، ومُسارعتهم إلى الإيمان والتّصديق:

إيثار التّعبير عن فيض عيونهم بالفعل المضارع:

في قوله ﷻ: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ عبّر عن فيض عيونهم بالفعل

عبّر عن فيض الدّموع بالفعل المضارع تصويرًا لحالهم واستجلابًا للصورة والحدث

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/669 - 670، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/72.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/345، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن: 6/3.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/273.
(5) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 560.
(6) العُكبرَيّ، التّبيان: 1/455.

المضارع تصويرًا لحالهم[1]؛ حيث إنّ الفعل المضارع يعبّر عن المزاولة الآنيّة، فالسّامع يستحضر صورة متحرّكة يرى حالهم، والغرض من ذلك التّأثير على السّامع بحالهم من الخشوع تعليمًا لهم وتشويقًا للاتّصاف بذلك مثلهم.

عبارة ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أَبلغُ في إفادة التّعليل من التّعبير بالتّمييز:

إنَّ التّعبير بعبارة ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أسلوبٌ يُفيد التّعليل، وهُو هُنا أبلغُ من التّعبير بالتّمييز، كأن يقول: (تفيضُ دمعًا)، وهُو أمرٌ مألوفٌ عند أصحاب القُلُوب الرّقيقة، والمشاعر المُرهفة، ممّا يكونُ عادةً لا تأثُّرًا، والسّياقُ يُريد ربطه بمعرفة الحقّ والقناعة به، لذلك قال: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾.

معاني (مِن) في جملة ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾:

عرفوا شيئًا من الحقّ فأبكاهم، فكيفَ إذا عرفوا الحقَّ كلّه:

قوله ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾: مُصدّرةٌ بقوله ﴿مِمَّا﴾، وهي مُكوّنةٌ من الحرف (مِن) الجارّة، و(مَا) الموصُولة فأُدغِمَتَا، و(مِن) هنا لابتداء الغاية عند بعضهم، إلّا أنّ المظنُون أنّها هُنا تعليليّةٌ؛ فإنّ أعيُنهم تفيضُ من الدّمع بسببِ عِرفانِهِمُ الحَقَّ، والأداةُ (مِن) وردت في هذه الآية مرّتين: الأُولى ﴿مِمَّا﴾ للابتداء، والثّانيّة ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾، قال السّمين الحلبيّ: "(مِن) الأولى لابتداءِ الغاية، وهي متعلّقةٌ بـ ﴿تَفِيضُ﴾، والثّانيةُ يُحتمل أن تكونَ لبيانِ الجنس، أي: بَيَّنت جنسَ الموصولِ قبلَها، ويُحتملُ أن تكُونَ للتّبعيضِ"[2]، لتبيين ما عرفُوا أو للتّبعيض، فإنّهُ بعضُ الحقّ، "والمعنى أنّهُم عرفُوا بعض الحقّ فأبكاهُم، فكيف إذا عرفُوه كلّهُ "[3]. والتّعبيرُ صورةٌ رائعةٌ للمشهد ليَشعُرَ به المُخاطَبُ أتمّ شُعور وأبلغه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2328.
(2) السّمين، الدّر المصون: 4/396.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/274.

وجُوِّزَ أن يكون التّعبير بالفيض في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ من باب الاستعارة[1]، فالأعينُ تمتلئُ دمعًا لحدّ الامتلاء، "فاستُعير له الفيضُ الّذي هو الانصبابُ عن امتلاءٍ مُبالغةً، أو جُعلت أعيُنُهم من فرط البكاء كأنّها تفيضُ بأنفسها"[2]، على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة[3]، وقد أُقيمَ المُسبّب مقام السَّبب، أو قصد المُبالغة في وصفهم بالبكاء[4].

التّعبيرُ عن انصباب الدّموع بالفيضان من قبيل الاستعارة التي تُصوّرُ الخشوعَ وكثرةَ البكاء:

إسنادُ الفيض إلى الظّرف من باب المجاز العقليّ:

وفي هذه الآية أيضًا – كما يُشير ابنُ عاشور– إسنادُ الفيض إلى الظّرف، على طريقة المجاز العقليّ، وهُو يُلمِّحُ إلى أنّهُم قد يقرِنُون هذا الإسناد بتمييزٍ، يكونُ قرينةً للإسناد المجازيّ، فيقولون: (فَاضَت عَينُهُ دَمعًا)، والحرفُ (مِن) في هذه الآية على قولِ نُحاةِ البصرة حرفُ ابتداء، وعلى قولِ نحاةِ الكوفة تكونُ (مِن) بيانيّةً جارّةً لاسم التّمييز، قال ابن عاشور: "فتكون الآيةُ منسوجةً على منوال القلب للمُبالغة، قُلِبَ قَولُ النّاسِ المُتعارف: فاض الدّمعُ من عين فُلانٍ، فقيلَ: أعينهم تفيضُ من الدّمع"[5].

الآيةُ منسوجةٌ على منوال القلب للمُبالغة

وفي حاشيّة القُونويّ أنّ إسنادَ الفيض إلى العين مجازٌ عقليٌّ، كجري النّهر للمُبالغة في وصفهم بالبكاء، أي: أنّ بكاءهم بلغ مبلغًا يظُنُّ من رآهم أنّ أعيُنهم بأنفُسِها تسيلُ، لجريان الدّموع منها بغزارة وقُوّة.

إسناد الفيض إلى العين مجازٌ عقليٌّ حتّى إنّ مَن يراهم يظنُّ أنَّ أعيُنَهم تسيلُ وحدها:

(1) الاستعارةُ: "أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللُّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل"، كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ) فالأصل: (رأيتُ رجلًا شجاعًا كالأسدِ في المدرسةِ) ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى. ينظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(2) صافي، الجدول: 7/7.

(3) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/47.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/479.

(5) ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير: 7/10.

قال القُونويّ: "وفي الوجه الأوّل المجازُ لغويٌّ، وفي الثّاني المجازُ عقليٌّ، ولو قدّمه على سابقه لكان أولى، والمرادُ تمتلئُ أعينُهم حتّى تفيض؛ فوضع المُسبّب مَوضع السّبب"[1].

إبرازُ التّمييز في صورة التّعليل:

أسلوبُ التّرقّي في وصف الأعيُن بالفيضان مُبالغةً في تصوير الخشوع والبكاء:

ثمَّة مبالغةٌ في التّمييز بجرّه بحرف الجرّ (مِن)، والأصلُ في التّركيب أن يُقال فيه: (تَفيضُ أَعيُنُهُم دَمعًا)، وفي هذا الأسلوب ترقٍّ على ثلاث مراحل: أوّلُها ما كان على الأصل فاعلًا، ومثاله: (فاضَ الدَّمعُ)، وثانيها تحويلُ الفاعل إلى تمييز، ومثاله: (فاضَت أَعيُنُهُم دَمعًا)، وثالثُها إبرازُ التّمييز في صورة التّعليل، وصورته المثال الوارد في نصّ هذه الآية: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، وهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4][2].

فائدة (مِن) الابتدائية:

أفادت أنّ فيض العين بدأ من معرفة الحقّ

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ تكرّرت (مِن) مرّتين: "الأولى لابتداء الغاية، على أنّ فيض الدّمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحقّ، وكان من أجله وبسببه"[3]، فعبّر بـ (مِن) الابتدائيّة ليدلّ على أن الدّمع متعلّق ببداية المعرفة.

فائدة ﴿مِنَ﴾ البيانيّة:

أفادت بيان الذي عرفوه وهو الحقّ

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ جاءت (مِن) الثّانية بيانيّة "لتبيين الموصول الذي هو (ما عرفوا)"[4]. فبين أنّ الذي عرفوه هو الحقّ.

فائدة التّعبير عن المعرفة بالفعل دون الاسم:

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ عبّر عن معرفتهم بالفعل

(1) القونوي، حاشيّة القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/540.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن: 6/3.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/670، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/670، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.

الماضي دون الاسم، فلم يقل: (من معرفتهم الحقّ)؛ إظهارًا لكونها معرفة قديمة لديهم، فهم يعرفون صفات النّبي ﷺ، وإشارة إلى ما حدث لهم من المعرفة الآنية حال سماعهم القرآن.

عـــــبّر عـن مـعـرفـتـهـم بـالـفـعـل دون الاسـم دلالـة على أنّها معرفة قديمة حادثة

دلالة التّعبير بالفعل (عَرَف):

قرنَ اللّه تعالى بُلوغ الحقِّ من لدُن عباده بالفعل ﴿عَرَفُواْ﴾، ولم يقرنهُ بالفعل (عَلِمُوا) لِمَا بين المعنيين من فُرُوقٍ في اللّفظ والمعنى، فأمّا اللّفظ ففعلُ العلم يتعدَّى إلى مفعُولَين، وفعلُ المعرفة يتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وهُو أليقُ بالسّياق والمعنى المُراد؛ لأنّ المطلُوبَ هُنا هُو الحَقُّ؛ وهُو لَفظٌ مُفردٌ، ممّا يُناسِبُ المفعُولَ الواحِدَ.

حـصـول مـعـرفـة الحقّ في النّفس أبـلـغُ أثـــرًا من العلم به:

أمّا الجانبُ المعنويُّ في الفرق بينهما، فإنّ معرفة الحقّ تتعلّقُ بذاته، والعلم به يتعلّقُ بأحواله، وكأنّهُ أرادهُ هنا لذات الحقّ؛ لأنّ الذّات ثابتةٌ، والأحوالَ مُتغيّرةٌ، وهُنا يحصُلُ تمييزُ المعرُوف من غيرِه؛ لأنّكَ إذا قُلتَ: (عَلِمتُ زَيدًا)، لم تُفد شيئًا، وانتظر السّامعُ الحال الذي علِمتَهُ عنهُ أو عليه، أمّا قولُك: (عَرَفتُ زيدًا)، ففيه الكمالُ بل كُلُّ الكمال؛ إذ إنّ السّامع قد أدرك المقصُود؛ لأنّك ميّزتهُ وبيّنتهُ على أحسن قول وأكمله.

فِـعـلُ المـعـرفـة ألـيَـقُ بـالـمـقـام لـدلالـتـه عـلى كـمـال تـمـيـيـز الحقّ والتّعرّف إليه:

والثّاني: "أَنَّ المعرفة في الغالب، تكُون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أَدركهُ قيل عرفه[1]، فهؤلاء عرفُوا الحقّ، وأدركُوه بعد أن غابَ عنهم؛ فلمّا تبّين لهم بعد غياب كأنّهم اشتاقُوا إليه، وحفّز مكنوناتِهم القلبيّة؛ لذلك فاضت دمُوعُهم.

الـقِـسّـيـسـون والرُّهبان عرفُوا الحقّ، وأدركُوه بـعـد أن غـاب عنهم، ففاضت أعيُنُهم شوقًا إليه:

والثّالث: أَنَّ المعرفة علمٌ يُعَيِّنُ الشّيء مُفصَّلًا، بخلاف العلم، فإنّه قد يتعلَّقُ بالشّيء مُجملًا، وهو هنا إشارةٌ إلى معرفتهم الحقّ كُلّ الحقّ، على جهة التّفصيل، ممّا أثّر في نُفُوسهم وشرعُوا يبكون؛

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/50.

وآيةُ ذلك أن سالت دُمُوعهم، فالتّعبيرُ بالمعرفة خلافُ العلم، ممّا يحقّق المقصُود، مع الوُصُول إلى غاية البلاغة والبيان.

المعرفة علمٌ يُعَيِّنُ الشّيء مُفصّلًا، والعلمُ بالشّيء عامٌّ:

بلاغة التّعبير بالفعل المضارع:

في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عبّر عن قولهم بالفعل المضارع للدّلالة على تصوير حالهم حال قولهم ذلك، ودلالة على تجدّد قولهم واستمراره، فكأنّهم كانوا يردّدون هذا المقول دائمًا.

عبّر بالمضارع دلالة على تصوير حالهم، وإشارة إلى أنّهم يقولون ذلك على الدّوام

جملةُ ﴿يَقُولُونَ﴾ بين الحاليّة والاستئناف:

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، نُلاحظ أنّ لسانَ حالهم ينطقُ لله تعالى، بأنّهم آمنوا بما أُنزل من الحقّ، ويدعُونه أن يجعلهم مع الّذين شهدُوا له بالوحدانيّة، فعبّر بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وهي جُملةٌ مُستأنفةٌ جديدةٌ، والوقفُ على ما قبلها (الحَقِّ) وقفٌ حَسَنٌ[1]، أو هي جملةٌ حاليةٌ من الواو في (سَمِعُوا)، أي: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾.

الاستئناف جوابٌ عن سؤال: ماذا كان من أمرهم حين عرفوا الحقّ؟ والحاليّةُ تصفُ حالَهم عند معرفته:

دلالةُ حذف أداة النّداء في قولهم ﴿رَبَّنَآ﴾:

قولُهُم: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: (يَا ربّنا)، على تقدير محذُوفٍ، وهو ياءُ النّداء، وتُحذفُ ياءُ النّداء كثيرًا لكثرة الاستعمال، ومعلومٌ أنّ حذف الأداة، ممّا يُشعرُ بقُرب المدعُوِّ مِنَ الدَّاعِي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ودليلُ ذلك أنّ الاسم منصوبٌ، وهو قولُهُ (ربَّنَا)، لأنّه مُضافٌ، فالمُنادى إذا كان مضافًا نُصِب، وعليه فقولُهُم (ربَّنَا آمَنَّا) بالفعل الماضي، دالٌّ على حصول الإيمان وثباته؛ لأنّ الإيمان حقيقةٌ ثابتةٌ تقُوم بالقلب.

حذفُ أداة النّداء يُؤذِنُ بقرب المَدعُوّ من الدّاعي:

إيثارُ النّداء بعنوان الرّبوبيّة:

وقد آثرَ القسّيسون والرّهبان الذين عرفوا الحقَّ من النّصارى

(1) الأُشمُوني، منار الهدى: 1/224.

أن يجأرُوا بين يدي ربّ العالمين بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبَّنَآ﴾ دون غيره من الأسماء والصّفات، كأنّهم يقولون: يا من تتّصف بالرّبوبيّة المُطلَقة، بلِّغنا إلى أحسن أحوالنا في مَهيَع عبادتك والتّبتُّل إليك؛ لأنّ لفظَ (الرّبّ) معناه الأساس هو توصيلُ الرّبّ مَن يُربّه إلى أحسن أحواله بلُطفٍ وتوجيه مع رعايته والإحسان إليه.

التّربية توصيل الرّبّ مَن يَربُّهُ ويُربّيه إلى أحسن أحواله بلُطفٍ وإحسان:

الرّبط بالفاء التّفريعية: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾:

ثمّ جاء بالفاء العاطفة الّتي تربطُ السّبب بالنّتيجة في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾، والفعلُ هُنا فعلُ أمر عند النّحويين، إلاّ أنّه يخرُج مخرج الدُّعاء، ومعنى (اكتُبنَا) في هذا الموضع (اجعَلنَا)، فإنّ لفظ (كَتَبَ) في القُرآن الكريم يردُ لمعانٍ مُتعدّدةٍ؛ منها الفرضُ، والحلالُ، والتّثبيتُ، والتّقديرُ، والتّخصيصُ، والإملاءُ، والإحصاءُ[1]؛ وكلُّ لفظةٍ وُضعت في سياقها المُناسب، فهيَ وإن كانت مُتّفقة حرفًا ووزنًا إلاّ أنّها مُختلفةٌ دلالةً ومعنًى، وهذا من عظمة القرآن، واتّساع لسان العرب المُتفرّد.

شعورُهم بإيمانهم العميق دعاهم إلى التّضرّع لاهجين مُستغيثين بعنوان الرّبوبيّة:

السرّ في قولهم (اكتبنا) دون غيره:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ طلبوا أن يكونوا مع الشّاهدين بقولهم ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾ تجرّدًا من امتلاكهم أسباب ذلك، فهم طلبوا محض إحسان الله لهم، فجعلوا طلبهم محاطًا بتفضّل الله عليهم، ومتجرّدًا عن أسباب ذلك إلاّ من الإيمان.

تجرّدًا عن الأسباب وإظهارًا لكمال الأدب مع الله تعالى

معنى المَعيّة في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: معناهُ: اجعلنا بصُحبة الشّاهدين من عبادك وأنبيائك، أوِ اجعلنا مع أمّة محمّد ﷺ؛ فهُم شهداءُ على الأمم يوم المعاد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ

(1) المطعني، خصائص التّعبير القرآني: 2/357.

حَسُنَ إيمانُهم فَـرَغِـبـوا أن يكونوا في عِـدَادِ الـشّـاهـديـن بـالـحـقِّ، من مُؤمِني الأُمم:

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143]، وفي هذا المضمار يقولُ صاحبُ (البحر المحيط): "رغبُوا في أن يكُونُوا عندَهُ في عِدَادِ الشّاهدين بالحقِّ، من مُؤمِني الأُمم، وعبّرُوا عن فعل الله ذلك لهُم بلفظ: (فَاكتُبنَا)، إذ كانت الكتابةُ تُقيِّدُ وتضبطُ ما يحتاجُ إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال"[1].

السّرّ في طلبهم أن يكونوا مع الشّاهدين:

أرادوا نيل شرف المبادرة باتّباع النّبوة وقت تكذيب النّاس لها ليكونوا من أصحاب الأنبياء

قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ سألوا الله تعالى أن يكونوا مع الشّاهدين، والمراد بهم الذين" شهدوا بعثة الرسل وصدقّوهم، وهذه فضيلة عظيمة لم تحصل إلّا في أزمان ابتداء دعوة الرّسل، ولا تحصل بعد هذه المرّة، وتلك الفضيلة أنّها المبادرة بتصديق الرّسل عند بعثتهم حين يكذّبهم النّاس بادئ الأمر"[2]. فطلبوا أن يكونوا من فئة النّاس الذين حضروا مبتعث النّبوة، وأن يكونوا ممّن يشهد على النّاس يوم القيامة إعلامًا ببلوغ الحقّ والرّسالة. وفي ذلك دلالة على عظيم رتبة الشّاهدين من أصحاب النّبيّ ﷺ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/174.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/415، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/11، والشوكاني، فتح القدير: 2/78.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»